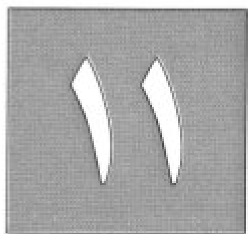
النص الكامل



مغامرات

شيرلوك هولمز



تأليف:
آرثر كونان دويل

مغامَرة تاج الزّمُرُّد





الأجيَال
للترجمة والنشر
AJYAL Publishers

بالرسومات الأصلية



مغامرات

شيرلوك هولمز

(١١)

مغامَرة تاج الزّمُرُّد

نُشرت للمرة الأولى في صحيفة «ستراند» الشهرية
في عدد أيّار (مايو) ١٨٩٢

تأليف: آرثر كونان دويل
ترجمة: سالي أحمد حمدي
تحرير: رمزي رامز حسّون



الأجيال
للترجمة والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
٢٠٠٧

العنوان الإلكتروني للناشر
info@al-ajyal.com

موقعنا على الإنترنت
www.al-ajyal.com



آرثر كونان دويل

وُلد آرثر كونان دويل لأسرة متوسطة الحال في إدنبرة في إسكتلندا في الثاني والعشرين من أيار (مايو) عام ١٨٥٩، والتحق بكلية الطب فيها وعمره سبعة عشر عاماً. وكان من مدرّسيه في الكلية الجرّاحُ الشهير الدكتور جوزيف بِلْ، وهو الذي أوحى إليه بشخصية شيرلوك هولمز التي ابتكرها بعد ذلك.

في عام ١٨٨٢ حصل دويل على شهادة الطب من جامعة إدنبرة، وكان يحلم بأن يصبح جرّاحاً وخبيراً في التشخيص مثل الدكتور بل، ولكن قلة المال اضطرته إلى العمل طبيباً على سفينة لصيد الحيتان.

بعد ذلك مارس مهنته في منزل صغير استأجره في بعض ضواحي بورتْسماوث، ولكن عدد المرضى كان قليلاً فاتجه إلى الكتابة أملاً في الحصول على بعض الدخل الإضافي. وقد كتب بعضاً من قصص المغامرات لمجلاّت الفتيان، ولكن أجره عنها كان ضئيلاً، وفشلت روايته الأولى في العثور على ناشر.

وفي غمرة إحساسه باليأس فكّر في أساليب الدكتور بل في التشخيص وقرر أن يستخدمها في قصة يكون بطلها واحداً من رجال التحري؛ وهكذا وُلد شيرلوك هولمز في رواية «دراسة قرمزية» التي نشرها دويل سنة ١٨٨٧.

لقد ابتكر دويل شخصية تفيض بالحياة، حتى إن الجماهير رفضت أن تصدق أنها شخصية خيالية! وكان المؤلف يتلقى بانتظام خطابات موجَّهة إلى هولمز تطلب مساعدته في حل قضايا حقيقية، وبعض هذه القضايا أدى إلى كشف قدرة دويل نفسه.

كانت إحدى هذه الحوادث تتعلق برجل سحب كل أمواله من البنك وحجز غرفة في أحد فنادق لندن، ثم حضر حفلاً عاد بعده إلى فندقه حيث أبدل ملابسه ثم اختفى. وعجز رجال الشرطة عن اكتشاف مكانه، وخشيت أسرته أن يكون قد أصيب بسوء، لكن دويل حلّ المشكلة سريعاً إذ قال: "سوف تجدون رجلكم في

غلاسكو أو إدنبرة، وقد ذهب هناك بمحض إرادته. إن سحب كل أمواله من البنك يشير إلى الهروب المتعمَّد، والحفل الذي كان فيه ينتهي في الساعة الحادية عشرة، ولمّا كان قد أبدل ملابسه بعد عودته فلا بدّ أنه كان ينوي القيام برحلة، والقطارات السريعة المتجهة إلى إسكتلندا تغادر محطة كينغز كروس عند منتصف الليل". وقد عُثر على الرجل في إدنبرة فعلاً!

كان آرثر كونان دويل رياضياً متعدد المواهب، فقد مارس الملاكمة وكرة القدم والبولينغ والكريكت، وكان خطيباً مفوَّهاً ومحاضراً ناجحاً ومحاوراً بارعاً، وقد داعبت آراؤه وأفكاره المتنوعة في الطب والعلم والأدب والسياسة والاجتماع.



وفي عام ١٩٠٠ تطوّع الدكتور دويل في حرب البُويِر (في جنوب إفريقيا) وصار كبيراً للجرّاحين في واحد من المستشفيات الميدانية، وفي نهاية الحرب مُنح وسام الفروسية ولقب «سير» تقديراً لخدماته. وقد أصدر بعد عودته

إلى إنكلترا كتاباً مهماً عن هذه الحرب.

وتوفي السير آرثر كونان دويل في السابع من تموز (يوليو) عام ١٩٣٠ بعد أن بلغ الحادية والسبعين، بعد ثلاث سنوات من كتابة آخر قصصه عن شيرلوك هولمز وبعد مرور أكثر من أربعين عاماً على أول ظهور علني لهذه الشخصية الخارقة.

* * *



شيرلوك هولمز وعالَمه

ربما كان شيرلوك هولمز أشهرَ الشخصيات الخيالية في التاريخ، بل إنه يكاد يفوق في شهرته كثيراً من مشاهير العالم الحقيقيين. وقد بلغ من شهرة هذه الشخصية أنها فاقت شهرةَ مبتكرها، آرثر كونان دويل.

استوحى دويل شخصية هولمز وصفاته من الدكتور جوزيف بِلْ الذي درّسه في كلية الطب. كان الدكتور بِلْ يتمتع بموهبة عظيمة في الملاحظة وأسلوب التفكير المنطقي، وكان يثير اهتمام تلاميذه بقدراته الاستنتاجية الفذة، فهو لم يكن ماهراً فقط في التعرف على علل المرضى، بل وفي معرفة شخصياتهم ومِهَنهم وتفصيلات خفية عنهم أيضاً. كان يقول لأحد المرضى مثلاً: "أنت ضابط سُرِّح من الجيش حديثاً، وقد عدتَ لتوّك من بربادوس، وأنت تعاني من داء الفيل". وبعد أن تسيطر الدهشة على المريض والطلبة

على السواء يشرح الدكتور بل الأمر قائلاً إن الرجل يبدو جندياً من هيئته، وعدم خلع قبعته عند دخوله الغرفة يدل على أنه ترك الخدمة حديثاً، وهو يملك مظاهر السلطة كتلك التي توجد لدى الضباط، وتدل بشرته التي لوّحتها الشمس والمرض الذي يشكو منه على أنه جاء من منطقة استوائية، وقد جاء من بربادوس لأن هذا المرض بالذات منتشر هناك!

«وُلد» شيرلوك هولمز -في عالَمه الخيالي- سنة ١٨٥٤ وحصل على شهادة جامعية لم يحدّدها دويل، ثم احترف مهنة «محقق خاص» منذ نحو سنة ١٨٧٨،



وكان يقيم في شارع بيكر في العاصمة البريطانية لندن، ورقم البيت الذي يقيم فيه هو «٢٢١ب». وقد لا نبالغ إذا قلنا إن هذا العنوان (٢٢١ب شارع بيكر) هو أشهر عنوان في العصر الحديث! وقد برع هولمز في كشف الجرائم وحل الألغاز الغامضة بفضل دقة ملاحظته وقدرته العظيمة على الاستنتاج والتحليل المنطقي، بالإضافة إلى غزارة معلوماته واطّلاعه الواسع على العلوم المختلفة.

أما الدكتور واطسون، صديق هولمز ومساعده الذي يرافقه في قصصه كلها، فلا يكاد يقل شهرة عن هولمز نفسه، وهو رَاوِية القصص الذي يقصّها علينا (كما فعل بعد ذلك هيستنغز في كثير من مغامرات بوارو). وهو طبيب وُلد نحو سنة ١٨٥٢ وتخرج طبيباً سنة ١٨٧٨، ثم انضم إلى الجيش سنة ١٨٨٠ وأمضى مدة خدمته في أفغانستان مع الجيش البريطاني، ثم عاد إلى بلده وتقاعد من الجيش بعدما أصيب في إحدى المعارك، وعندها تعرف إلى شيرلوك هولمز في مختبر الكيمياء بمستشفى ستامفورد في أوائل سنة ١٨٨١، ولم يفترق الصديقان بعد ذلك قط. وقد تزوج الدكتور واطسون في أواخر سنة ١٨٨٦، لكن دويل لم يشأ أن يعرّفنا إلى زوجته ولم يذكر لنا اسمها.

في قصة «المشكلة الأخيرة» التي نُشرت في نهاية

عام ١٨٩٣ «قتل» دويل بطله شيرلوك هولمز، لكنه واجه احتجاجاً عارماً من جماهير القراء فقرر إعادة إحياء هذه الشخصية الخيالية من جديد، فعاد هولمز إلى الظهور مرة أخرى في أواخر عام ١٩٠٣ ليستأنف حل القضايا الغامضة.

* * *



قصص شيرلوك هولمز

أول قصة نشرها دويل كانت في عام ١٨٧٩، وهي قصة قصيرة عنوانها «إفادة السيد جِفْسون»، أما أول رواية نشرها من بطولة شيرلوك هولمز فكانت «دراسة قرمزية»، وقد صدرت في بريطانيا عام ١٨٨٧ فلم يَكَد يُحِسّ بها أحد، لكنها حققت نجاحاً معتدلاً في الولايات المتحدة. وبعدها نشر رواية طويلة ثانية من بطولة شيرلوك هولمز، وهي رواية «علامة الأربعة» التي نُشرت عام ١٨٩٠ فوطّدت شخصيةَ هولمز في بريطانيا وأمريكا على السواء.

وفي السنة التالية (١٨٩١) بدأ نشر مجموعة «مغامرات شيرلوك هولمز» في حلقات شهرية في مجلة «ستراند»، بدءاً بقصة «فضيحة في بوهيميا» التي ظهرت في عدد تموز (يوليو)، فقوبلت هذه القصص بنجاح كبير غير مسبوق في تاريخ الصحافة البريطانية، ودخلت هذه الشخصية الخيالية التاريخَ من بابه الواسع، حيث صارت حديثَ المجتمع وشغلَ الناس في أنحاء البلاد.

وقد بلغ عدد قصص هذه السلسلة اثنتَي عشرة نُشر آخرها في عدد حزيران (يونيو) من عام ١٨٩٢. ثم ظهرت سلسلة «ذكريات شيرلوك هولمز» التي نُشرت في اثنتَي عشرة حلقة أيضاً صدر أولها في كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٢، ويبدو أن دويل بدأ يملّ عندئذ من كتابة قصص شيرلوك هولمز، ولذلك «قتله» في آخر قصة من هذه المجموعة في معركة مع البروفسور موريارتي الشرّير عند شلالات رايشِنْباخ في سويسرا! وقد نُشرت هذه القصة (وعنوانها «المشكلة الأخيرة») في كانون الأول (ديسمبر) عام ١٨٩٣.

وثار جمهور دويل غضباً وانهالت عليه ألوف الخطابات تستنكر عمله وخسرت المجلة عشرين ألف اشتراك، ولكن دويل تمسّك بموقفه، فقد شعر بأن شيرلوك هولمز يحول بينه وبين أعمال أكثر أهمية. ثم وافق أخيراً بسبب الإلحاح الذي لم ينقطع على «بعث» شيرلوك هولمز، فأعاده إلى العمل في قصة «مغامرة المنزل الخالي» التي نُشرت في مجلة «ستراند» في تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٠٣.

وعاد شيرلوك هولمز إلى الأضواء من جديد؛ فقد تبيّن أنه لم يُقتَل على الإطلاق، وفي تلك القصة (المنزل الخالي) شرح دويل كيف نجا هولمز من الموت بأعجوبة، ثم شقّ طريقه بعد ذلك إلى بلاد

التبّت لمساعدة اللاما الكبير، ثم عاد إلى لندن ليحقق في وفاة ابن أحد اللوردات بطريقة غامضة. وقد أثارت عودة شيرلوك هولمز في مجلة «ستراند» في بريطانيا ومجلة «كوليِرْز» في أمريكا حماسة بالغة في نفوس عشّاقه المخلصين وحققت للمجلتين مبيعات غير مسبوقة. واستمر نشر سلسلة «عودة شيرلوك هولمز» (التي بلغ عدد حلقاتها ثلاث عشرة حلقة) حتى كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٤.

وكان دويل قد نشر قبل هذه السلسلة روايةَ شيرلوك هولمز الطويلة الثالثة «كلب عائلة باسكرفيل»، وقد استمر نشر حلقاتها من آب (أغسطس) ١٩٠١ إلى نيسان (أبريل) ١٩٠٢، وهي أشهر روايات شيرلوك هولمز على الإطلاق.

وبعدها صدرت سلسلة «الظهور الأخير» التي تضم سبع قصص نُشرت على حلقات متباعدة بين أيلول (سبتمبر) ١٩٠٨ وكانون الأول (ديسمبر) ١٩١٣، ثم الرواية الطويلة الرابعة «وادي الرعب» (٩/١٩١٤-٥/١٩١٥)، وهي أعظم روايات شيرلوك هولمز كما يقول النقّاد. وأخيراً سلسلة «قضايا شيرلوك هولمز» (١٠/١٩٢١-٤/١٩٢٧) التي نُشرت آخر حلقاتها بعد أربعين سنة تماماً من صدور أولى روايات شيرلوك هولمز.

ولم تقتصر مؤلفات آرثر كونان دويل على قصص وروايات شيرلوك هولمز، فقد ألّف كتباً كثيرة غيرها، منها روايات تاريخية ورومنسية ومسرحيات، بالإضافة إلى عدد كبير من الكتب والدراسات الغير الروائية.

والحقيقة أنه كان كاتباً غزير الإنتاج، فقد بلغ ما تركه من المؤلفات نحو مئة وستين، منها ستّون من قصص وروايات شيرلوك هولمز، وخمس روايات من بطولة شخصية خيالية أخرى ابتكرها هي شخصية عالِم اسمه البروفيسور تشالنجر، وأشهر هذه الروايات هي «العالَم المفقود»، ونحو أربعين رواية من الروايات المتنوعة، بالإضافة إلى عشر مسرحيات، وأربعة دواوين شعرية، وأكثر من خمسين كتاباً وكتيّباً في الشؤون الاجتماعية والسياسية والعسكرية، وكتاب ذكرياته الجميل الذي سمّاه «ذكريات ومغامرات».

❋ ❋ ❋



رسّام شيرلوك هولمز الأشهر

تعاقب على رسم شخصية شيرلوك هولمز عددٌ من الرسّامين، لكن أشهرهم وأعظمهم -بلا خلاف- كان الرسام الإنكليزي سدني باجيت الذي صاحَبَ روايات هولمز وقصصَه منذ ولادتها المبكرة، وهو الذي بَلْوَر صورة شيرلوك هولمز وطَبَعَها في عيون القراء على مدار السنين.

والغريب أن المجلة لم تسعَ ابتداءً خلف سدني باجيت بل خلف أخيه الأكبر ولتر الذي كان قد نجح في رسم رسومات قصّتَي «جزيرة الكنز» و«روبنسون كروزو»، لكن خطأ في الاتصالات تسبب في دعوة سدني، الأخ الأصغر، لرسم صور القصص الستّ

الأولى التي نشرتها مجلة «ستراند» في النصف الثاني من عام ١٨٩١، وعلى إثر النجاح الهائل الذي لقيَته هذه القصص مع رسوماتها التصق سدني باجيت بآرثر كونان دويل لتصبح رسومات هذا بنفس أهمية كتابة ذاك في عالم شيرلوك هولمز. وقد استمر سدني باجيت برسم الصور لقصص وروايات شيرلوك هولمز حتى وفاته عام ١٩٠٨، وبلغ عدد ما رسمه خلال هذه السنوات ٣٥٧ رسماً زيّنت ٣٨ قصة.

وحين توفي سدني استعانت مجلة «ستراند» برسّامين آخرين، فشارك في رسم السلسلة الجديدة «الظهور الأخير» كل من ولتر باجيت، الأخ الأكبر لسدني، وآرثر تويدل وجلبرت هاليدي وأليك بول وجوزف سمبسون. أما السلسلة الأخيرة -وهي «قضايا شيرلوك هولمز»- فقد رسمها ثلاثة من الرسامين هم أ. جلبرت وهاوارد إلكوك وفرانك وايلز.

هذا في نسخة هولمز البريطانية التي نشرتها مجلة «ستراند»، أما في أمريكا فقد استعانت مجلة «كوليِرْز» بعدد من الرسامين أشهرهم فردريك دورْ ستيل، ومنهم و هـ هايد وجوزف فريدرتش ورتشارد غوتشمت.

* * *

مغامَرة تاج الزُّمُرُّد

قلت ذات صباح وأنا أطل من نافذتنا إلى الشارع: أترى ذلك الرجل المجنون الذي يسير في الشارع يا هولمز؟ إنه لمن المحزن أن يسمح له أقاربه بالخروج وحيداً.

قام صديقي عن مقعده بتكاسل ووقف خلفي ويداه في جيبَي ردائه لينظر من فوق كتفي. كان ذلك في صباح أحد الأيام من شهر شباط (فبراير)، وكان الجو صافياً وقد تلألأ الثلج -الذي سقط بغزارة في الليلة السابقة- تحت ضوء شمس الشتاء، وكانت حركة المرور قد شقّت شريطاً بنياً في وسط شارع بيكر بينما بقي الثلج مكدساً على حاله على جانبَي الطريق وعند حوافّ ممرات المشاة، وبالرغم من تنظيف الرصيف الرمادي إلا أنه كان ما يزال زلقاً بشكل خطير، ولذلك فقد كان عدد المارة أقل من المعتاد في مثل ذلك الوقت، حتى إنه لم يكن هناك أيّ قادم من جهة محطة متروبوليتان سوى ذلك الرجل الذي لفت انتباهي بتصرفاته الغريبة.

كان في نحو الخمسين من العمر، طويل القامة

ضخم الجثة ذا وجه ضخم مميّز وهيئة مهيمنة. وبالرغم من كآبة ملابسه إلا أنها كانت أنيقة، فقد ارتدى بنطالاً رمادي اللون جيد التفصيل وسترة سوداء طويلة وقبعة لامعة وانتعل حذاء بنّياً أنيقاً. وقد وجدت بين تصرفاته وبين وقار ملامحه ووجاهة ملابسه تناقضاً غريباً، فقد كان يجري بشدّة ويثب وثبات قصيرة من حين إلى آخر، ويحرك يديه إلى أعلى وأسفل ويهزّ رأسه وهو يجري وقد التوَت قسمات وجهه بطريقة غريبة.

تساءلت قائلاً: ما خطب هذا الرجل؟ إنه ينظر إلى أرقام المنازل!

فقال هولمز وهو يفرك يديه: أظن أنه قادم إلى هذا المنزل.

- إلى هنا؟!

- نعم؛ أعني أنه جاء لاستشارتي في عمل، فأنا أعرف مثل هذه الأعراض... ها، ألم أقل لك؟

فيما كان هولمز يتكلم اندفع الرجل إلى باب منزلنا وهو يلهث بشدة وأخذ يدق الجرس حتى ضجّ المكان كله بالرنين، وبعد دقائق قليلة كان الرجل في الغرفة وهو لا يزال يلهث ويشير بيديه، وعلى الفور

حوّلت نظراته الحزينة اليائسة بسماتنا إلى شعور بالرعب والشفقة.

وقد ظلّ لبعض الوقت غير قادر على الكلام وأخذ يهزّ جسده ويشدّ شعره كشخص يقف على شفا الجنون، وفجأة هبّ واقفاً على قدميه وأخذ يضرب رأسه بالجدار بعنف جعلنا نندفع نحوه ونجذبه إلى وسط الغرفة. ودفعه هولمز إلى الجلوس على كرسي مريح، ثم جلس بجواره وهو يربّت على يده ويحدثه بنبرة مريحة مُطَمئنة يعرف جيداً كيف



رسم سدني باجيت ١٨٩٢ — Sydney Paget 1892

يستخدمها، فقال: لقد جئت إليّ هنا لتروي قصتك، أليس كذلك؟ ولكنك الآن متعب بسبب تعجّلك، ولذلك أرجو أن تنتظر حتى تستردّ أنفاسك، وعندها سيسعدني جداً أن أبحث أية مشكلة صغيرة قد تقولها لي.

جلس الرجل لدقيقة أو أكثر وهو يلهث ويحاول مغالبة مشاعره، وبعد ذلك مسح بمنديله على حاجبيه وزمّ شفتيه، ثم التفت نحونا وقال: لا شك أنكم تظنون أنني مجنون.

فأجابه هولمز قائلاً: بل أرى أن لديك مشكلة رهيبة.

- يعلم الله أن لدي مشكلة تكاد تفقدني صوابي من هول المفاجأة والفظاعة. لو توقف الأمر على الخزي العلني لاستطعت مواجهته، بالرغم من أنني رجل لم تَشُب سمعتَه شائبةٌ حتى الآن، كما أن المآسي الشخصية هي قدَر كل إنسان، ولكن أن يجتمع الأمران معاً وبهذا الشكل الرهيب ففي هذا ما يكفي لزعزعة كياني. وبالإضافة إلى ذلك فالأمر لا يخصني وحدي، فأنبل شخص على وجه الأرض قد يعاني هو الآخر ما لم نكتشف طريقة للخروج من هذه المسألة الرهيبة.

قال هولمز: أرجو أن تتمالك نفسك يا سيدي، ولتخبرني بوضوح من أنت وما الذي حلّ بك.

فأجاب زائرنا قائلاً: قد يكون اسمي مألوفاً لك، فأنا ألكساندر هولدر من شركة هولدر وستيفنسون للأعمال المصرفية.

كان الاسم معروفاً لنا بالفعل، فهو الشريك الأكبر لثاني أضخم مؤسسة مصرفية خاصة في مدينة لندن، فما الذي يمكن أن يكون قد حدث إذن ليصل بواحد من صفوة المواطنين في لندن إلى مثل هذه الحالة المثيرة للشفقة؟

انتظرنا بفضول حتى استطاع بعد مجهود مضاعف أن يتمالك نفسه ليروي قصته، فقال: أشعر أن للوقت أهمية، ولهذا أسرعت إليك عندما أشار مفتش الشرطة إلى ضرورة طلب تعاونك، فجئت إلى شارع بيكر في قطار الأنفاق ثم هرعت إلى هنا على الأقدام لأن عربات الأجرة كانت تسير ببطء بسبب هذا الثلج، ولذلك كنت غير قادر على التقاط أنفاسي حيث إنني لا أمارس الرياضة إلا فيما ندر. على أية حال أشعر الآن بتحسن، وسأحاول أن أخبرك بالوقائع بإيجاز ولكن بوضوح.

إن من المعروف لكما بالطبع أن العمل المصرفي الناجح يعتمد على قدرتنا على توظيف مواردنا المالية في استثمارات مربحة، كما يعتمد على توسيع دائرة معارفنا وزيادة عدد المودعين. والقروض هي إحدى أكثر الوسائل ربحاً حين تكون الضمانات موثوقة، وقد قمنا بالكثير من هذا النوع في السنوات القليلة الماضية فمنحنا قروضاً بمبالغ ضخمة للعديد من العائلات النبيلة بضمان لوحاتها أو مقتنياتها الثمينة الأخرى.

وبالأمس كنت جالساً في مكتبي في المصرف عندما أحضر لي أحد الموظفين بطاقة تعريف، وقد جفلت حين نظرت إلى الاسم، فهو لم يكن إلا... حسناً، ربما كان من الأفضل أن لا أقول لك أكثر من أنه اسم معروف في العالم كله، وهو واحد من أرفع وأنبل وأكثر الأسماء سمواً في إنكلترا. وقد تأثرت بتشريفه لي وحاولت أن أخبره بذلك لدى دخوله، ولكنه تطرّق إلى العمل في الحال وبدا كمن يرغب في الانتهاء بسرعة من مهمة كريهة، فقال: لقد أخبروني أن من عادتك إقراض المال يا سيد هولدر.

فأجبته قائلاً: تقوم الشركة بذلك حين تكون الضمانات جيدة.

- من الضروري أن أحصل على خمسين ألف جنيه في الحال. أستطيع بالطبع أن أقترض عشرة أمثال هذا المبلغ التافه من أصدقائي، ولكنني أفضّل أن يكون الأمر مجرد عمل وأن أقوم به بنفسي، ويمكنك أن تفهم أنّ من غير الحكمة لشخص في مثل مركزي أن يضع نفسه في موضع المَدين لشخص آخر.

فسألته قائلاً: هل يمكنني أن أسأل عن المدة التي ستحتاج هذا المبلغ خلالها؟

قال: سأحصل على مبلغ كبير يوم الإثنين المقبل، وعندها سأدفع لك القرض بالإضافة إلى الفائدة التي ستقررها، ولكن من الضروري جداً أن أحصل على المال في الحال.

فقلت: كان سيسعدني أن أقرضك المال من جيبي الخاص بلا مفاوضة لولا أنه أكثر من إمكانياتي، وحين أصنع ذلك من حساب الشركة فيجب أن أصرّ -من باب الإنصاف لشريكي- على اتخاذ كافة الاحتياطات.

فقال وهو يرفع حقيبة سوداء مربعة الشكل كان قد وضعها بجانب كرسيه: وأنا أفضّل أن يتم الأمر

على هذا النحو. لقد سمعت عن تاج الزُّمُرُّد بالطبع، أليس كذلك؟

فقلت: إنه واحد من أثمن الممتلكات العامة للإمبراطورية.

- تماماً.

ثم فتح الحقيبة التي وُضعت في داخلها قطعة الجواهر الرائعة تلك على فَرشة من المخمل الأحمر الناعم وقال: في التاج تسع وثلاثون زُمُرّدة، وهو يكاد لا يُقدَّر بثمن. إن أقل تقدير قد يوضع لثمن التاج سيبلغ ضِعف المبلغ الذي أطلبه، وأنا على استعداد لأن أتركه ضماناً معك.

أمسكت بالحقيبة الثمينة بين يديّ ونظرت إليها ثم إلى عميلي الشهير بشيء من الحيرة، فسألني قائلاً: هل تشك في قيمتها؟

- أبداً، ولكني أتساءل فقط عن...

- عن مدى سلامة قراري بتركها معك؟ يمكنك أن تطمئن، فلو لم أكن واثقاً تمام الثقة من أنني سأتمكّن من استرجاعها خلال أربعة أيام لما تركتها أبداً، ولكنه إجراء شكلي فقط. والآن هل

سيكون الضمان كافياً؟

- إنه يكفي ويزيد.

- لعلك تدرك يا سيد هولدر أنني أُقدّم لك دليلاً قوياً على ثقتي بك، وهي ثقة قامت على ما سمعته عنك، ولذلك أعتمد عليك ليس فقط لكي تتكتم على الأمر وتُحجم عن مناقشته مع أحد بل



رسم سدني باجيت ١٨٩٢ Sydney Paget 1892

أيضاً لكي تتخذ كل الاحتياطات الممكنة للمحافظة على التاج، فلست بحاجة لإخبارك عن مدى فداحة الفضيحة التي قد تقع إذا مسّه أي أذى؛ إن أي ضرر قد يصيبه سيكون بخطورة فقدانه تماماً، فليس في العالم من أحجار الزمرّد ما يضاهي أحجار التاج هذه. على أية حال سأتركه معك وأنا مطمئن تماماً، وسوف أحضر بنفسي لاستلامه يوم الإثنين المقبل.

حين رأيت عميلي يتوق إلى المغادرة طلبت الصرّاف وأمرته بإحضار المبلغ. وعندما خلوت إلى نفسي ورأيت الحقيبة الثمينة أمامي على الطاولة لم أستطع إلا أن أفكر -ببعض الخوف- في مدى فداحة المسؤولية الملقاة على عاتقي، فلا شك في الفضيحة الرهيبة التي ستنشأ لو حدث للتاج أي مكروه لأنه كنز قومي، حتى لقد بدأت أشعر بالفعل بالندم لأنني وافقت على تحمل هذه المسؤولية، ولكن كان أوان تغيير ما حدث قد فات، ولذلك أغلقت عليه خزنتي الخاصة والتفتّ إلى عملي مرة أخرى.

وعندما حلّ المساء شعرت أن من الحماقة أن أترك كنزاً ثميناً بهذا القيمة في المكتب وأنصرف، فخزائن المصرفيين قد نُهبت من قبل ولا يوجد ما يضمن عدم حدوث ذلك لخزنتي، فقررت حمل

الحقيبة طَوال الأيام الثلاثة التالية في ذهابي وإيابي، وبذلك أضمن أن لا تكون بعيدة عني أبداً. وهكذا طلبت عربة أجرة واتجهت إلى منزلي في ستريتهام وأنا أحمل الجواهر الثمينة معي، ولكنني لم أتنفس الصعداء إلا بعد أن أخذتها إلى الدور العلوي وأغلقت عليها درج مكتبي في غرفة ملابسي.

وسأخبرك الآن -يا سيد هولمز- بنبذة عن الأفراد المقيمين في منزلي لأنني أودّ أن تحيط بالموقف من جميع جوانبه؛ السائس وخادمي الخاص يقيمان خارج المنزل ولذلك يمكن أن نستبعدهما، وفي المنزل ثلاث خادمات يعملن عندي منذ عدة سنوات وإخلاصهن التام غير قابل للشك، وخادمة أخرى اسمها لوسي بار لم تلتحق بخدمتي إلا منذ شهور قليلة، وقد جاءت بتوصية ممتازة وأنا راضٍ تماماً عن عملها، ولكنها فتاة جميلة جداً وتجذب المعجبين الذين يتسكعون في المكان من حين إلى آخر، هذا هو مأخذنا الوحيد عليها ولكننا نعتقد أنها فتاة جيدة جداً من جميع النواحي.

أما عائلتي فهي صغيرة جداً بحيث لن أستغرق كثيراً من الوقت في وصفها لك، فأنا أرمل وابني الوحيد اسمه آرثر، وهو يمثّل خيبة أمل لي يا سيد

هولمز، خيبة أمل موجعة، وإن كان اللوم يقع عليّ بلا شك؛ فالناس يقولون لي إنني دلّلته، ولعلي صنعت ذلك بالفعل، فعندما توفيت زوجتي العزيزة شعرت بأنه لم يعد لي أحد غيره لأُغدق عليه كل حبي، حتى إنني لم أكن أحتمل أن تغيب البسمة عن وجهه ولو للحظة، ولم أرفض له أمنيّة قط. ربما كان من الأفضل لو كنت أكثر صرامة ولكنني لم أقصد إلا الخير.

وكنت أنوي أن يخلفني في عملي بطبيعة الحال، ولكن لم أجد لديه نزعة للعمل بل وجدته أهوج صعب المراس. وفي الحقيقة لم أستطع أن أأتمنه على مبالغ كبيرة من المال؛ فقد التحق بعضوية أحد النوادي الأرستقراطية عندما كان أصغر سناً، وهناك تمكّن بسرعة وبفضل شخصيته الجذابة من عقد صداقة مع عدة رجال أثرياء ذوي عادات مُكلِّفة، فتعلم أن يلعب الورق كثيراً وأن ينفق المال على حلبة السباق حتى إنه أتاني مراراً وتكراراً ليتوسل إليّ أن أعطيه سُلفة على مخصّصاته المالية حتى يستطيع تسديد ديون الشرف! وقد حاول أكثر من مرة أن يبتعد عن تلك المجموعة التي كان يرافقها، ولكن تأثير صديقه السير جورج بيرنويل

كان كافياً ليعيده إليهم ثانية في كل مرة.

وفي الحقيقة لم تدهشني قدرة السير جورج بيرنويل على التأثير فيه حيث إنه أحضره مراراً إلى المنزل وبالكاد استطعت منع نفسي من الانجذاب إلى شخصيته، فهو أكبر سناً من آرثر، كما أنه رجل شديد الحنكة ذهب إلى كل مكان ورأى كل شيء، وهو متحدث بارع بالإضافة إلى حسن طلعته، وبالرغم من ذلك كله فحين أفكر فيه بحياد وأنا بعيد عن حضوره الساحر تقنعني السخرية التي لمستها في حديثه والنظرة التي لمحتها في عينيه بأنه شخص غير جدير بالثقة. هذا هو رأيي، كما أنه رأي صغيرتي ماري التي تتمتع بفراسة المرأة في التحليل السريع للشخصية.

لم يبقَ إلا أن أخبركما عن ماري، وهي ابنة شقيقي التي كفلتها واعتبرتها ابنتي عندما تُوفي أخي منذ خمس سنوات وتركها وحيدة في هذا العالم، وهي تنشر الدفء والنور في منزلي، فهي جميلة ومحبّة ورقيقة، بالإضافة إلى أنها تدير المنزل وشؤونه ببراعة وتتمتع بكل ما يميز المرأة من الحنان والوداعة ورقة القلب. إنها ساعدي الأيمن ولا أعرف ما الذي يمكنني فعله دونها، والأمر الوحيد

الذي خالفَت فيه رغبتي هو رفضها ابني حين طلبها للزواج مرتين، رغم أنه يحبها بإخلاص. أعتقد أنها الوحيدة القادرة على ردّه إلى الطريق الصحيح وأن ذلك الزواج قد يغيّر حياته بأكملها، ولكن لقد فات الأوان للأسف... فات الأوان.

ها أنت –يا سيد هولمز– قد عرفت الأفراد المقيمين في منزلي، وسأخبرك الآن بما تبقى من قصة مأساتي. في تلك الليلة، وعندما كنا نتناول القهوة في غرفة الرسم بعد العشاء، أخبرت آرثر وماري بما حدث معي وبأمر الكنز الثمين الموجود في منزلنا، ولكني كتمت اسم عميلي. وبالرغم من



رسم سدني باجيت ١٨٩٢ Sydney Paget 1892

أنني متأكد من أن لوسي بار كانت قد غادرت الغرفة بعد أن أحضرت القهوة إلا أنني لا أجزم بأن الباب كان مغلقاً، وقد أبدى كلّ من آرثر وماري اهتمامهما بالتاج الشهير ورغبتهما في رؤيته، ولكنني فضّلت أن أتركه حيث وضعته. وسألني آرثر قائلاً: أين وضعته؟

قلت: في درج مكتبي الخاص.

قال: حسناً، فلنَدْعُ الله أن لا يتم السطو على المنزل في أثناء الليل.

فأجبته قائلاً: لقد أحكمت الإغلاق عليه.

– آه، إن أي مفتاح قديم قد يناسب ذلك المكتب، فعندما كنت صغيراً فتحته بمفتاح خزانة الغرفة الصغيرة.

لم أُعِر كلامَه اهتماماً لأنه غالباً ما يتحدث بطريقة هوجاء، ولكنه تبعني إلى غرفتي في تلك الليلة تكسو وجهه علامات التجهّم الشديد وقال وهو ينظر إلى الأرض: هل يمكن أن تعطيني مئتَي جنيه يا أبي؟

فأجبته بحدة: لا، لن أستطيع؛ فقد كنت كريماً

معك إلى حد كبير فيما يختص بالمال.

فقال: لقد كنت لطيفاً جداً معي، ولكن يجب أن أحصل على هذا المال وإلا فلن أستطيع أن أذهب إلى النادي ثانية.

فصِحت قائلاً: هذا سيكون أمراً جيداً جداً.

- أجل، ولكنك لن تجبرني على تركه وأنا موصوم بعدم النزاهة. لن أتحمل هذا العار، ولذلك يجب عليّ تدبير المال بأية طريقة، وإذا لم توفره لي فسوف يتوجّب عليّ السعي لتوفيره بوسائل أخرى.

فشعرت بغضب شديد لأنها كانت المرة الثالثة التي يطلب فيها المال خلال الشهر، فصِحت قائلاً: لن تحصل على أي نقود مني.

وعندها انحنى احتراماً وغادر الغرفة دون أن ينطق بكلمة أخرى. وبعد مغادرته الغرفة قمت بفتح درج مكتبي لأطمئن إلى أن كنزي بأمان، ومن ثمّ أغلقته ثانية، وبعد ذلك بدأت جولة لتفقد المنزل والتأكد من تأمينه، وهي مهمة كنت أتركها في العادة لماري ولكنني رأيت من الأنسب أن أقوم بها بنفسي في تلك الليلة. وعندما نزلت الدرَج رأيت ماري تقف عند النافذة الجانبية للقاعة وقد قامت بإحكام

إغلاقها عندما اقتربت، وقالت وقد بدا عليها بعض الانزعاج: أخبرني يا أبي، هل أعطيت الخادمة لوسي إذناً لتخرج الليلة؟

- بالطبع لا.

- لقد عادت لتوّها من الباب الخلفي، ولست أشك في أنها كانت عند البوّابة الجانبية لترى أحدهم.



رسم جوزف فريدرتش ١٩٠٦ Josef Friedrich 1906

هذا تصرّف أخرق ويجب أن يتوقف.

- يجب أن تتحدثي إليها في الصباح، أو سأتحدث أنا إليها إذا كان هذا ما تفضّلينه. هل أنت متأكدة من أن كل شيء مغلق بإحكام؟

- تمام التأكد يا أبي.

- تصبحين على خير إذن.

ثم قبّلتها وصعدت إلى غرفتي ثانية حيث غرقت في النوم سريعاً.

إنني أحاول إخبارك -يا سيد هولمز- بكل شيء قد يكون له علاقة بالقضية، وأرجو أن تسألني عن أي نقطة لم أوضحها جيداً.

فقال هولمز: بل إن روايتك واضحة تماماً.

لقد وصلت الآن إلى الجزء الذي أتمنى أن يكون في غاية الوضوح. إن نومي ليس ثقيلاً، ولا بد أن القلق قد زاد من خفّته، ففي نحو الساعة الثانية صباحاً أيقظني صوت صادر من المنزل، وبالرغم من أن الصوت كان قد توقف قبل أن أستيقظ تماماً إلا أنني أحسست وكأنه صوت نافذة تُغلق بهدوء في مكان ما في المنزل. فاستلقيت مُنصتاً بانتباه شديد،

وفجأة زاد خوفي حين سمعت صوتاً واضحاً لأقدام تتحرك بخفة في الغرفة المجاورة، فنزلت عن سريري وأنا أرتجف من الخوف، ثم نظرت بحذر باتجاه باب غرفة ملابسي، ومن ثَم صِحت قائلاً: آرثر، أيها اللص الخسيس! كيف تجرأت على لمس هذا التاج؟!



Sydney Paget 1892 رسم سدني باجيت ١٨٩٢

كان الضوء خافتاً كما تركته وولدي التعس يقف بجوار المصباح ممسكاً التاج بيده، وقد بدا وكأنه يحاول أن يلويه أو يثنيه بكل قوّته، وعندما سمع صيحتي أسقطه على الأرض واستدار ووجهه شاحب شحوب الموتى، فالتقطت التاج ورفعته إلى الأعلى لكي أفحصه، وعندها اكتشفت اختفاء قسم من الإطار الذهبي يحتوي على ثلاثة من أحجار الزمرد، فصرخت فيه وقد أخرجني الغضب عن شعوري: أيها النذل، لقد دمّرته وجلبت عليّ العار إلى الأبد! أين الجواهر التي سرقتَها؟

فصاح قائلاً: سرقتُها؟!

فهدرت قائلاً وأنا أمسكه من كتفيه وأهزّه: أجل أيها اللص!

فقال: لا شيء مفقود، لا يمكن أن يكون أي شيء مفقوداً.

- بل لقد فُقدت ثلاثُ زُمُرّدات وأنت تعرف أين هي. أيجب أن أنعتك بالكاذب إضافة إلى نعتك باللص؟ ألم أرَك وأنت تحاول انتزاع قطعة أخرى من التاج؟

فقال: لقد أهنتني بما فيه الكفاية ولن أحتمل

أكثر من ذلك، كما أنني لن أنطق بكلمة عن هذا الموضوع بما أنك قد قررت تحقيري. سأترك منزلك في الصباح وأشقّ طريقي في الحياة وحدي.

أفقدني الغضب والحزن صوابي فصِحت فيه قائلاً: ستغادره وأنت مقبوض عليك، فسوف أطلب التحقيق في هذا الأمر حتى أصل إلى الحقيقة.

فقال بانفعال لم أكن أظن أبداً أنه قادر عليه: لن تعرف شيئاً مني، ولو قررت الاتصال بالشرطة فدع الشرطة يكتشفون ما يستطيعون اكتشافه.

في ذلك الوقت كان كل من في المنزل قد استيقظ، فقد رفعت صوتي في فورة غضبي، وكانت ماري هي أول من أسرع إلى غرفتي، وقد أدركت ما حدث عندما رأت التاج ووجه آرثر، فصرخت ووقعت على الأرض مغشياً عليها. بعد ذلك أرسلت الخادمة لاستدعاء رجال الشرطة ووضعتُ التحقيق بين أيديهم على الفور. وعندما دخل المفتش وأحد رجال الشرطة إلى المنزل سألني آرثر -الذي كان يقف متجهّماً وقد عقد ذراعيه على صدره- إن كنت أنوي اتهامه بالسرقة، فأجبته بأن الأمر لم يعد شخصياً ولكنه أصبح عاماً لأن التاج المخرّب كنز قومي، ولذلك فأنا مصرّ على أن العدالة يجب أن

تأخذ مجراها في كل شيء.

فقال: على الأقل أرجو أن لا تجعلهم يقبضون عليّ في الحال، فإن من مصلحتك ومصلحتي أن تتركني أخرج من المنزل لخمس دقائق.

فقلت: أتريدني أن أفعل ذلك لتهرب، أو ربما لتخفي ما سرقته؟

بعد ذلك ولإدراكي الموقف المروِّع الذي وُضعت فيه توسّلت إليه أن يتذكر أن سمعتي ليست وحدَها المعرّضة للخطر، بل أيضاً سمعة شخص أعظم مني بكثير، وأنه بذلك يتسبب في إثارة فضيحة قد ترتجّ لها الأمة بأكملها، وقلت له إن من الممكن تفادي كل هذا بإخباري بما فعله بالأحجار الثلاثة المفقودة. قلت أيضاً: يجب عليك أن تواجه الموقف، فقد أمسكت بك مُتلبساً، ولا يمكن لأي اعتراف أن يزيد من فظاعة ذنبك، ولكن إذا قمت بمثل هذا التصحيح وأنت قادر عليه فسوف أنسى كل شيء وأصفح عنك.

فأجابني قائلاً: احتفظ بصفحك لمن يطلبه.

ثم استدار مبتعداً عني بازدراء. وحين رأيت أن عناده شديد وأن أي كلام سأقوله لن يؤثر فيه

لم يعد أمامي غير طريق واحد، فناديت المفتش وسلّمته له، فقاموا بتفتيشه شخصياً بالإضافة إلى تفتيش غرفته وكل مكان من الممكن أن يخفي فيه الجواهر في المنزل، ولكن لم يُعثَر على أي أثر لها، كما لم ينطق ابني التعس برغم كل محاولاتنا لإقناعه أو تهديده. وقد نُقل هذا الصباح إلى إحدى الزنزانات، وأسرعت أنا إليك -بعد أن أنهيت كل تلك المعاملات الرسمية- لأتوسل إليك أن تستخدم مهاراتك لحلّ القضية، فالمفتش قد اعترف بصراحة بأنه لن يستطيع عمل شيء بشأن القضية في الوقت الحاضر. يمكنك الإنفاق بلا حدود ما دمت ترى ذلك ضرورياً، وقد قمت بالفعل برصد مكافأة قدرها ألف جنيه. يا إلهي، ما الذي يجب عليّ فعله؟ لقد فقدت في ليلة واحدة سمعتي وجواهري وابني! آه، ماذا سأفعل؟

ثم وضع يديه على جانبَي رأسه وأخذ يهزّ نفسه إلى الأمام وإلى الخلف وهو يهمهم كطفل أفقده الحزن قدرته على الكلام. أما شيرلوك هولمز فقد جلس صامتاً لبضع دقائق وقد عقد حاجبيه وثبّت عينيه على النار، ثم سأل قائلاً: هل تستقبلون زواراً كثيرين؟

- لا نستقبل أحداً سوى شريكي وعائلته، بالإضافة إلى بعض أصدقاء آرثر من حين إلى آخر، كما زارنا السير جورج بيرنويل عدة مرات في الآونة الأخيرة، ولا يوجد أحد آخر على ما أعتقد.

- هل تذهبون إلى المناسبات الاجتماعية كثيراً؟

- آرثر يفعل، أما أنا وماري فنبقى في المنزل؛ فكلانا لا يهتم بذلك.

- هذا أمر غير اعتيادي بالنسبة لفتاة شابة.

- إنها ذات طبيعة هادئة، كما أنها ليست صغيرة جداً، فهي في الرابعة والعشرين.

- بدا مما قلتَه أن ما حدث كان صدمة لها أيضاً.

- لقد كان تأثيره مريعاً فيها، بل لقد فاق تأثيره فيّ أنا نفسي.

- ألم يساور أحدَكما الشكُّ في كون ابنك مذنباً؟

- كيف يمكننا ذلك وقد رأيته بعينيّ والتاج في يده؟!

- أنا لا أعتبر ذلك دليلاً قاطعاً. هل لحق أي ضرر بالجزء المتبقي من التاج؟

- نعم، لقد التوى.

- ألا تظن إذن أنه كان يحاول تقويمه؟

- باركك الله! إنك تبذل قصارى جهدك للتخفيف عني وعنه، ولكنها مهمة ثقيلة، فما الذي كان يفعله في تلك الغرفة على أي حال؟ وإذا كان غرضه شريفاً فلماذا لم يفصح عنه؟

- تماماً، ولو كان مذنباً فلماذا لم يخترع كذبة؟ يبدو لي أن صمته قد يوحي بالأمرين. إنني ألمح عدة نقاط غريبة في هذه القضية. وما رأي الشرطة في الصوت الذي أيقظك من نومك؟

- لقد فسّروه بأنه صدر عندما أغلق آرثر باب غرفة نومه.

- هذا تفسير غير محتمَل، كما لو كان مَن ينوي القيام بجريمة سيقوم بإغلاق بابه بعنف حتى يوقظ أهل الدار! وماذا قالوا إذن عن اختفاء تلك الجواهر؟

- ما زالوا يطرقون على الألواح الخشبية

ويفحصون الأثاث أملاً في العثور عليها.

- هل فكروا في البحث خارج المنزل؟

- نعم، لقد أظهروا همّة كبيرة، فقد قاموا بفحص الحديقة بأكملها فحصاً دقيقاً.

فقال هولمز: والآن يا سيدي العزيز، أليس من الواضح لك أن هذه القضية تحمل في طياتها أكثر بكثير مما اعتقدت أنت والشرطة في بداية الأمر؟ فما بدا لك وكأنه قضية بسيطة يبدو لي في غاية التعقيد. فإذا أمعنتَ النظر في نظريتك ستجد أنك تفترض أن ابنك قام من سريره وذهب -مع ما في ذلك من مخاطرة شديدة- إلى غرفة ملابسك ليفتح مكتبك ويُخرج التاج، ثم يقوم باستعمال القوة الشديدة ليكسر قطعة صغيرة منه، ويذهب بعد ذلك إلى مكان آخر ويخفي ثلاث زُمرّدات (من أصل تسع وثلاثين) بمهارة بحيث لا يستطيع أحد أن يعثر عليها، وبعدها يعود ومعه الزمرّدات الست والثلاثون الباقية إلى الغرفة، معرّضاً نفسه إلى خطر داهم باكتشافه. أسألك الآن يا سيدي: أيمكنك قبول مثل هذه النظرية؟

صاح المصرفي بيأس قائلاً: ولكن ما هو

البديل؟ ولماذا لا يبرر تصرفاته إن كان بريئاً؟

فأجاب هولمز قائلاً: إن مهمتنا هي اكتشاف ذلك، ولذلك سنذهب الآن معاً إلى ستريتهام ونقضي ساعة في دراسة التفصيلات عن قرب.

❋ ❋ ❋

أصرّ صديقي على أن أرافقهما في تلك الرحلة الاستكشافية، كما أنني كنت متشوّقاً لذلك لأن القصة التي سمعتها أثارت فضولي وتعاطفي. وأعترف بأن ذنب الابن كان واضحاً لي وضوحه لأبيه الحزين، ولكنني -بالرغم من ذلك- كنت أثق بحصافة رأي هولمز مما جعلني أشعر بأن هناك ما يدعو إلى الأمل ما دام أنه لم يكن راضياً عن التفسير المتفق عليه.

وقد لزم هولمز الصمت طَوال الطريق إلى الضاحية الجنوبية للمدينة، وجلس وذقنه على صدره وقد سحب قبعته لتغطي عينيه وغرق في تفكير عميق، بينما انتعش عميلنا بشعاع الأمل البسيط الذي أعطاه هولمز له، حتى إنه انخرط معي في حوار متقطع عن أحوال عمله.

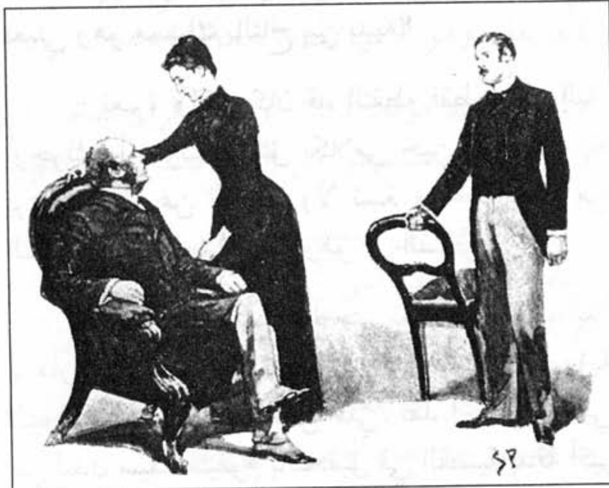
وصلنا بعد رحلة قصيرة بالقطار وأخرى أقصر على الأقدام إلى «فيربانك»، وهو محل الإقامة

المتواضع للخبير المالي العظيم. كان فيربانك منزلاً من الحجارة البيضاء كبيراً إلى حد ما وله شكل مربع ويبعد عن الطريق قليلاً، وأمامه طريق مزدوج للعربات له مرج يكسوه الثلج ويمتد حتى يصل إلى بوّابتين حديديتين واسعتين يغلقان المدخل، وعلى الجانب الأيمن ممر ضيّق يمتد من الشارع بين سياجين أنيقين إلى باب المطبخ ليمثل مدخل البائعين، أما على الجانب الأيسر فيقود شارع ضيّق إلى الإسطبلات، وإن كان لا يقع ضمن حدود الحديقة حيث إنه طريق عام برغم أنه لا يستعمَل إلا نادراً.

كنا نقف عند الباب حين تركَنا هولمز ودار ببطء حول المنزل بأكمله، حيث سار عبر المدخل حتى ممر الباعة ثم أكمل دورانه حول المنزل مستخدماً الحديقة الخلفية حتى وصل إلى الشارع الضيّق المؤدي إلى الإسطبل، وقد استغرق وقتاً طويلاً، ولذلك دخلت أنا والسيد هولدر إلى قاعة الطعام وانتظرناه قرب النار حتى يعود. وكنا نجلس هناك في صمت عندما فُتح الباب ودخلت سيدة شابة، كان طولها فوق المتوسط، وكانت نحيلة الجسم وقد زاد شحوب وجهها الشديد من سواد عينيها وشعرها،

فلا أعتقد أنني سبق أن رأيت امرأة يكسو وجهَها مثلُ هذا الشحوب المميت. وقد بدت شفتاها شاحبتين أيضاً، أما عيناها فكانتا محتقنتين من البكاء، فتركَت في نفسي أثراً أشد مما فعل المصرفيّ في الصباح.

سارت عبر الغرفة بصمت، وبدا واضحاً أنها امرأة ذات شخصية قوية وتتمتع بقدرة هائلة على ضبط النفس. وقد اتجهت مباشرة إلى عمها -غيرَ مبالية بوجودي- ومرّت بيدها على رأسه بطريقة أنثوية لطيفة، ثم سألت قائلة: لقد أمرتهم بإطلاق سراح آرثر، أليس كذلك يا أبي؟



رسم سدني باجيت ١٨٩٢ Sydney Paget 1892

- لا، لا يا ابنتي، يجب التحقيق في هذا الأمر حتى نصل إلى نتيجة.

- ولكنني متأكدة تماماً من أنه بريء، وأنت تعرف كيف هي غريزة المرأة، فأنا أعرف أنه لم يفعل ما يضرّ وأنك ستندم على التصرّف بهذه القسوة.

- ولماذا يلتزم الصمت إذن إن كان بريئاً؟

- من يدري؟ ربما لأنه كان غاضباً جداً بسبب شكك فيه.

- وكيف يمكنني أن لا أشك فيه وقد رأيته بعيني وهو ممسك بالتاج بين يديه؟

- نعم، ولكنه كان قد التقطه فقط لينظر إليه. أرجوك، أرجوك أن تثق بكلامي حين أقول لك إنه بريء. تخلَّ عن القضية ولا تسعَ وراءها؛ فإن من المريع تصوّر العزيز آرثر وهو في السجن.

- لن أتخلى عنها أبداً حتى نجد الجواهر، أبداً يا ماري. إن مشاعرك تجاه آرثر قد أعمتك عن رؤية التبعات السيئة التي ستحل عليّ. لقد أحضرت معي من لندن سيداً سيقوم بالتحقيق في القضية بدقة أكبر عوضاً عن التستّر على الأمر.

فسألت وهي تستدير لتنظر إليّ: هذا السيد؟

- لا، بل صديقه، ولكنه طلب منّا أن نتركه وحده، وهو الآن يتجوّل في الطريق المؤدي إلى الإسطبلات.

رفعت حاجبيها الداكنين وقالت: طريق الإسطبل؟ وما الذي يرجو أن يجده هناك؟ آه، ها هو قد جاء على ما أعتقد.

عندما اقترب هولمز قالت له: إنني أعتمد عليك يا سيدي لتثبت براءة ابن عمي آرثر من هذه الجريمة، وهو الأمر الذي أنا متأكدة منه.

فأجابها هولمز قائلاً: أوافقك الرأي تماماً، وأنا واثق من أنني سأتمكن من إثبات ذلك بمساعدتك.

ثم رجع إلى الممسحة لينفض الثلج عن حذائه وعاد ليقول: أظن أنني أتشرّف بمحادثة الآنسة ماري هولدر، فهل تسمحين لي بطرح سؤال أو اثنين؟

- أرجو أن تفعل يا سيدي إذا كان في ذلك ما يساعد في حلّ هذه القضية المروعة.

- ألم تسمعي شيئاً ليلة أمس؟

- لم أسمع أي شيء حتى بدأ عمي يتكلم بصوت مرتفع، وقد أسرعت عندما سمعت صياحه.

- هل أغلقت النوافذ والأبواب في الليلة السابقة؟

- نعم.

- وهل كانت كلها محكمة الإغلاق هذا الصباح؟

- نعم.

- أظن أن لإحدى خادماتك صديقاً، وأذكر أنك قلت لعمك بالأمس إنها خرجت لرؤيته، أليس كذلك؟

- بلى، وهي الخادمة نفسها التي قامت بخدمتنا قبل ذلك في تلك الليلة، ومن الممكن أن تكون قد سمعت ملاحظات عمي عن التاج.

- فهمت. أنت تلمّحين إلى أنها ربما خرجت لتخبر صديقها، وبعد ذلك دبّر الاثنان السرقة؟

فصاح المصرفيّ بنفاد صبر قائلاً: وما الجدوى من كل هذه النظريات المبهَمة وقد أخبرتك أنني

رأيت آرثر والتاج بين يديه؟

- انتظر قليلاً يا سيد هولدر وسنعود لاحقاً إلى ما تقول. بخصوص تلك الفتاة يا آنسة هولدر، أظن أنك رأيتِها تعود من باب المطبخ؟

- نعم، فعندما ذهبت لأتأكد من أن الباب محكم الإغلاق في تلك الليلة قابلتها وهي تتسلل إلى الداخل، كما أنني رأيت الرجل أيضاً في عتمة الليل.

- هل تعرفينه؟

- نعم، إنه الفتى الذي يحضر لنا الخضروات، واسمه فرانسيز بروسبر.

- أكان يقف إلى يسار الباب؟ بمعنى آخر، هل تقدّم في الممر أكثر من اللازم حتى يصل إلى الباب؟

- نعم، لقد فعل.

- وهل له ساق خشبية؟

فظهر ما يشبه الخوف في عينَي الشابة السوداوين المعبّرتين وقالت: يا للعجب! إنك كالساحر. كيف

عرفت ذلك؟!

ثم ابتسمت، ولكن لم تظهر على وجه هولمز النحيل المتلهف ابتسامةٌ مقابلة، وقال: يسعدني الآن الصعود إلى الطابق العلوي، كما أنه من المحتمل أن أرغب في فحص خارج المنزل مرة أخرى، ولكن



رسم سدني باجيت ١٨٩٢ Sydney Paget 1892

قد يكون من الأفضل أن أُلقي نظرة على النوافذ السفلية قبل أن أصعد.

انتقل هولمز بسرعة من نافذة إلى أخرى، ولكنه توقف فقط عند النافذة الأكبر التي تطل من القاعة على الطريق المؤدي إلى الإسطبل، حيث قام بفتحها وفحص عتبتها بعناية شديدة مستخدماً عدسته المكبّرة القوية، ثم قال أخيراً: والآن لنذهب إلى الطابق العلوي.

كانت غرفة ملابس المصرفي صغيرة قليلة الأثاث، فلم يكن فيها سوى سجادة رمادية ومكتب كبير ومرآة طويلة. ذهب هولمز إلى المكتب أولاً وتفحص القفل جيداً، ثم سأل: بأي مفتاح تم فتحه؟

- بذلك المفتاح الذي أشار إليه ابني بنفسه. إنه مفتاح خزانة غرفة التخزين.

- هل هو معك هنا؟

- إنه هناك على طاولة الزينة.

أخذه شيرلوك هولمز وفتح المكتب، ثم قال: إنه قفل بلا صوت، فلا عجب إذن في أنه لم يوقظك.

وأفترضُ أن هذه هي الحقيبة التي تحتوي على التاج؟ يجب أن ألقي نظرة عليها.

ثم فتح الحقيبة ليُخرج التاج ويضعه على الطاولة. كان التاج نموذجاً رائعاً لفن صانعه، كما أن الأحجار الستة والثلاثين كانت من أنقى ما رأيت. وكان أحد طرفَيه مكسوراً، وهو المكان الذي انتُزعت منه الزاوية التي تحمل الزمرّدات الثلاث.

قال هولمز: والآن يا سيد هولدر، ها هي الزاوية المناظرة لتلك التي فُقدت بكل أسف. هل لي أن أطلب منك أن تكسرها؟

فتراجع المصرفيّ في هلع وقال: إنني لا أجرؤ حتى على المحاولة.

- سأحاول أنا إذن.

وفجأة ركّز هولمز كل قوّته فيه ولكن بلا فائدة، فقال: أظن أنني أرخيته قليلاً، ولكن بالرغم من أن أصابعي قوية جداً إلا أنه سيستغرق مني وقتاً طويلاً لأكسره، أما الشخص العادي فلن يستطيع فعل ذلك. والآن يا سيد هولدر، ما الذي سيحدث في رأيك إذا كسرته؟ سيُصدر صوتاً كطلقة المسدس،

فهل تريد أن تقنعني بأن من الممكن أن يحدث كل ذلك على بُعد أمتار قليلة منك دون أن تسمع شيئاً؟

- إنني في حيرة من أمري، وكل شيء غامض بالنسبة لي.

- قد يخفّ الغموض مع تقدّمنا في التحقيق. ما رأيك يا آنسة هولدر؟

- أعترف بأنني أشارك عمي حيرته.

- هل كان ابنك يرتدي حذاء أو خُفاً عندما رأيته؟

- لم يكن يرتدي إلاّ قميصه وبنطاله.

- شكراً لك. إن الحظ يحالفنا في هذا التحقيق، وسيكون الخطأ خطأنا إذا لم ننجح في حلّ هذه القضية. بعد إذنك يا سيد هولدر، سأستأنف بحثي في الخارج.

ذهب هولمز وحده بناء على طلبه، وقد فسّر ذلك بأن آثار الأقدام غير الضرورية قد تزيد من صعوبة مهمته. وقد استمر بالعمل لمدة ساعة أو أكثر، ثم عاد أخيراً وقدماه محمّلتان بالثلج وملامحه مبهمة كالعادة، وقال: أعتقد أنني رأيت كل شيء يا

سيد هولدر، وسأفيدك أكثر بعودتي إلى مسكني.

- وماذا عن الجواهر يا سيد هولمز؟ أين هي؟

- لا أعرف.

لوى المصرفيّ يديه وصاح: ألن أراها ثانية؟ وماذا عن ابني؟ لقد أعطيتني الأمل.

- إن رأيي لم يتغير إطلاقاً.

- وما الذي حدث إذن في منزلي ليلة أمس بالله عليك؟

- إذا استطعتَ الحضور إلى منزلي في شارع بيكر فيما بين الساعة التاسعة والعاشرة من صباح الغد فسوف يسعدني أن أبذل جهدي لأوضّح لك الأمر أكثر، وكما فهمت فأنت تعطيني كامل الصلاحية في التصرف نيابة عنك على أن أعيد الجواهر، بالإضافة إلى عدم وجود حدود للمبلغ الذي سأسحبه.

- أنا على استعداد للتنازل عن ثروتي في مقابل استعادتها.

- عظيم، سأدرس الأمر منذ الآن وحتى ذلك الوقت. إلى اللقاء، ولكن من الممكن أن أضطرّ إلى

العودة إلى هذا البيت.

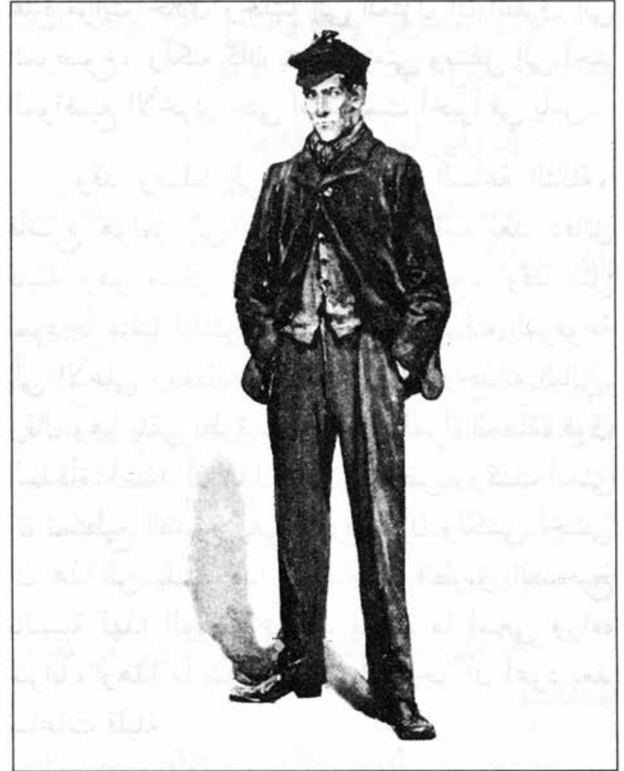
بدا واضحاً لي أن رفيقي قد كوّن رأياً عن القضية، أما أنا فلم أستطع تكوين أي تصوّر مهما يكن بسيطاً عن النتيجة التي وصل إليها. وقد حاولت عدة مرات خلال رحلتنا إلى المنزل أن أتطرق إلى الموضوع، ولكنه كان يتملّص مني وينتقل إلى أحد المواضيع الأخرى حتى استسلمت أخيراً في يأس.

وقد وصلنا إلى مسكننا قبل الساعة الثالثة، فأسرع هولمز إلى غرفته ثم نزل ثانية بعد دقائق قليلة وهو متنكر بزيّ متسكّع وَضيع، وقد مثّل نموذجاً متقَناً لتلك الفئة من الناس بياقته المرفوعة إلى الأعلى ومعطفه المنحول الرثّ وحذائه البالي. وقال وهو يلقي نظرة سريعة على المرآة المعلّقة فوق المدفأة: أعتقد أن هذا سيَفي بالغرض، وكنت أتمنى أن تستطيع القدوم معي يا واطسون ولكنني أخشى أن هذا لن يفيد. قد أكون على الطريق الصحيح بالنسبة لهذا الموضوع وقد يكون ما أسعى وراءه سراباً، وهذا ما سأكتشفه قريباً. أرجو أن أعود بعد ساعات قليلة.

ثم قطع شريحة من لحم البقر من القطعة

الموجودة على المائدة الجانبية ووضعها بين طبقتين من الخبز، وبعد أن دسّ هذه الوجبة البدائية في جيبه انطلق في رحلته الاستكشافية.

* * *



رسم سدني باجيت ١٨٩٢ Sydney Paget 1892

كنت قد انتهيت من شرب الشاي للتوّ حين عاد هولمز الذي كان من الواضح أنه في حالة مزاجية ممتازة، وهو يؤرجح في يده حذاء قديماً له جوانب مطاطية رماه في الركن وأعدّ لنفسه كوباً من الشاي. وقال: لقد كنت ماراً فدخلت فقط لوقت قصير، وسأخرج ثانية على الفور.

- إلى أين؟

- إلى الناحية الأخرى من الجانب الغربي. وقد يمر بعض الوقت قبل أن أعود، ولذلك فلا تسهر في انتظاري في حال تأخري.

- كيف يتقدم تحقيقك؟

- لا هو بالرديء ولا هو بالجيد، ولكن لا يوجد ما أشتكي منه. لقد ذهبت إلى ستريتهام بعد أن رأيتك آخر مرة ولكنني لم أدخل إلى المنزل، إنها مشكلة لطيفة وبسيطة ولم أكن لأضيّعها مهما كان الثمن. على أية حال لا يجب أن أجلس لأثرثر هنا، بل يجب عليّ أن أخلع هذه الملابس المخزية لأعود إلى هيئتي المحترمة.

استطعت أن أستشفّ من تصرفاته أن لديه أسباباً أقوى للارتياح مما تدل عليه كلماته وحدها،

فقد لمعت عيناه وتسللت حمرة خفيفة إلى خديه الشاحبين. وأسرع هولمز إلى الطابق العلوي، وبعد دقائق قليلة سمعته يصفق باب القاعة فعرفت أنه انطلق ثانية وراء صيده المحبَّب.

انتظرت حتى منتصف الليل، ولمّا لم أجد أية إشارة على عودته أويت إلى غرفتي، فلم يكن من غير الطبيعي أن يغيب لأيام متصلة حين يكون في أعقاب أثر ما، ولهذا لم يفاجئني تأخره. ولم أعرف في أي ساعة عاد، ولكن عندما نزلت لأتناول إفطاري وجدته هناك وقد أمسك بقدح من القهوة في يد وبالصحيفة في اليد الأخرى وهو في قمة نشاطه وأناقته.

قال: اعذرني لأنني بدأت قبل نزولك يا واطسون، ولكنك تذكر أن لعميلنا موعداً مبكراً هذا الصباح.

فأجبته قائلاً: يا للعجب! لقد تجاوزت الساعة التاسعة، ولن أدهش إن كان هو مَن جاء الآن، فقد سمعت صوت الجرس.

كان القادم حقاً هو صديقنا المصرفي، وقد صُدمت بالتغيير الذي حدث له، فوجهه الذي كان في

العادة عريضاً ضخم الشكل أصبح هزيلاً ضامراً، بينما بدا لي شعره وكأنه قد ازداد شيباً! وقد دخل إلى الغرفة تظهر عليه أمارات الوهن والخمول، الأمر الذي كان أكثر إيلاماً من تصرفاته العنيفة التي قام بها صباح اليوم السابق.

ارتمى بتثاقل على الكرسي ذي الذراعين الذي دفعته إلى الأمام ليجلس عليه، وقال: لا أعرف ما الذي فعلته لأُبتلى بهذه الشدة، فمنذ يومين فقط كنت رجلاً سعيداً ناجحاً ولا أحمل همّ شيء في هذا العالم، والآن تُركت لأشيخ وحيداً محمّلاً بالعار والمِحَنُ تتوالى عليّ الواحدة في أعقاب الأخرى، فقد تخلّت عني ابنة أخي ماري.

- تخلّت عنك؟!

- نعم، فهذا الصباح كانت غرفتها خالية، ولم تكن قد نامت في سريرها، كما كانت هناك رسالة قصيرة لي على طاولة القاعة. فقد قلت لها ليلة أمس، بأسف وليس بغضب، إنها لو كانت تزوّجت بابني لكان أمره قد صَلُح. وربما لم أُراعِ مشاعرها بهذا الكلام، فهي تشير إلى هذا التعليقَ في هذه الرسالة فتقول:

عمي الغالي:

أشعر أني تسببت لك في مشكلة وأنني لو تصرفت بطريقة مختلفة لما كانت هذه النكبة الرهيبة قد حلّت أبداً، ولن أستطيع أن أسعد تحت سقف بيتك ثانية وأنا أعرف ذلك، ولذلك أشعر بأنني يجب أن أترك منزلك إلى الأبد. لا تقلق على مستقبلي فهو مؤمَّن، وقبل كل شيء لا تبحث عني، فسيكون ذلك عملاً غير مثمر وفيه إحراج لي.

مُحبّتك إلى الأبد: ماري

- ما الذي تعنيه بهذه الرسالة يا سيد هولمز؟ أتظنها تشير إلى الانتحار؟

- لا، لا شيء من هذا القبيل، بل إن ذلك قد يكون هو الحل الأمثل، وأنا على ثقة من أنك تقترب من نهاية متاعبك يا سيد هولدر.

- ماذا؟! أحقاً تقول؟ أسمعت شيئاً يا سيد هولمز؟ أعرفت شيئاً؟ أين هي الجواهر؟

- أتظن أن ألف جنيه للقطعة سعر مبالَغ فيه؟

- أنا على استعداد لدفع عشرة آلاف.

- هذا غير ضروري، فثلاثة آلاف ستتكفّل بالأمر، وهناك مكافأة صغيرة على ما أعتقد. هل معك دفتر شيكاتك؟ خذ القلم؛ من الأفضل أن تكتب الشيك بأربعة آلاف جنيه.

كتب المصرفي الشيك المطلوب والذهولُ بادٍ على وجهه، فمشى هولمز إلى مكتبه وأخرج قطعة من الذهب صغيرة مثلّثة الشكل وعليها ثلاثة أحجار كريمة، وألقى بها على الطاولة.

أطلق عميلنا صرخة فرح وهو يُطبق عليها ويرفعها ويشهق قائلاً: حصلت عليها! لقد نجوت، لقد نجوت!

ثم عبّر عن سعادته بنفس الحدّة الانفعالية التي عبّر بها عن حزنه وضمّ الجواهر المستردّة إلى صدره، فقال شيرلوك هولمز بصرامة: أنت مَدين بشيء آخر يا سيد هولدر.

- مدين؟!

ثم التقط القلم وقال: حدّد المبلغ وسوف أدفعه يا سيد هولمز.

- لا، إن الدَّين ليس لي، بل إنك مَدين

باعتذار صادق لذلك الصبي النبيل، ابنك، فقد تصرّف في هذا الأمر بما يدعو إلى الفخر.

- لم يكن آرثر هو مَن أخذها إذن؟

- لقد أخبرتك بالأمس، وأكرر اليوم أنه لم يفعل.

- أأنت متأكد من ذلك؟! دعنا إذن نسرع إليه ونخبره بأن الحقيقة قد ظهرت.

- إنه يعرف ذلك بالفعل، فقد ذهبت لمقابلته بعدما وضحت الأمور، وعندما وجدت أنه يرفض إخباري بالقصة أخبرته أنا بها، وعندها اعترف بأنني على حق وأضاف بعض التفصيلات القليلة جداً التي لم تكن واضحة لي تماماً... وإن كانت الأخبار التي أحضرتها هذا الصباح قد تجعله يتكلم.

- إذن أخبرني بالله عليك، ما هذا اللغز الغريب؟!

- سأفعل ذلك، وسأوضح لك الخطوات التي اتبعتها لحلّه، ولكن دعني أخبرك أولاً بما يصعُب عليّ قوله كما سيصعُب عليك سماعه. ثمة تفاهم بين السير جورج بيرنويل وبين ابنة أخيك ماري،

وقد هربا الآن معاً.

- ماري؟! مستحيل!

- الأمر ليس مجرَّد احتمال للأسف، بل هو مؤكد؛ فلا أنت ولا ابنك عرفتما الشخصية الحقيقية لذلك الرجل عندما سمحتما بدخوله إلى منزل العائلة. إنه واحد من أخطر الرجال في إنكلترا، فهو مدمن على القمار ووغد لا أمل فيه على الإطلاق، كما أنه بلا قلب ولا ضمير. وابنة أخيك لا تعرف شيئاً عن هذا الرجل، فعندما همس لها بعهوده -كما فعل مع المئات قبلها- شعرت بالزّهو لأنها الوحيدة التي مسّت قلبه كما صوّر لها. وهكذا صارت أداة في يده واعتادت أن تراه كل ليلة تقريباً.

صاح المصرفيّ وقد شحب وجهه شحوب الموتى قائلاً: لا أستطيع تصديق ذلك، ولن أفعل!

- سأخبرك إذن بما حدث في منزلك ليلة أمس، فعندما اعتقدَت ابنة أخيك أنك ذهبت إلى غرفتك تسلّلَت لتتحدّث إلى صديقها هذا عبر النافذة المطلة على طريق الإسطبل، فآثار أقدامه مطبوعة بوضوح على الثلج مما يدل على طول المدة التي وقفها هناك. وعندما أخبرَته عن التاج أثارت الأخبارُ

شهوته الكريهة تجاه الذهب فاستمالها لتنفّذ رغبته.

أنا لا أشك في حبها لك، ولكن من النساء من يطغى حب الحبيب عندهنّ على كل أنواع الحب الأخرى، وأعتقد أنها واحدة منهن. وكانت بالكاد قد استمعت إلى تعليماته حين رأتك نازلاً إلى الطابق السفلي، فأغلقت النافذة بسرعة وأخبرتك عن تصرفات الخادمة الطائشة مع صديقها ذي الساق الخشبية، وهو الأمر الذي كان صحيحاً تماماً.

أما ابنك آرثر فقد ذهب لينام بعد حديثه معك، ولكنه لم ينَم جيداً بسبب انزعاجه من ديونه في النادي. وفي منتصف الليل سمع صوتاً خافتاً لخطوات تمرّ بباب غرفته، فنهض ونظر ليُفاجأ بأن ابنة عمه تتسلل خلسة عبر الممر ثم تدخل إلى غرفة ملابسك. وصدمه الذهول فارتدى بعض الملابس وانتظر هناك في الظلام ليرى عن أي شيء سيسفر هذا الأمر الغريب، وفي الحال خرجت ثانية من الغرفة، واستطاع ابنك في ضوء مصباح الممر أن يرى أنها تحمل التاج الثمين في يدها، وعندما نزلت الدرَج أسرع -وهو يرتعش رعباً- واختبأ خلف الستارة القريبة من باب غرفتك حيث كان يستطيع رؤية ما يحدث بالأسفل في القاعة، فرآها تفتح

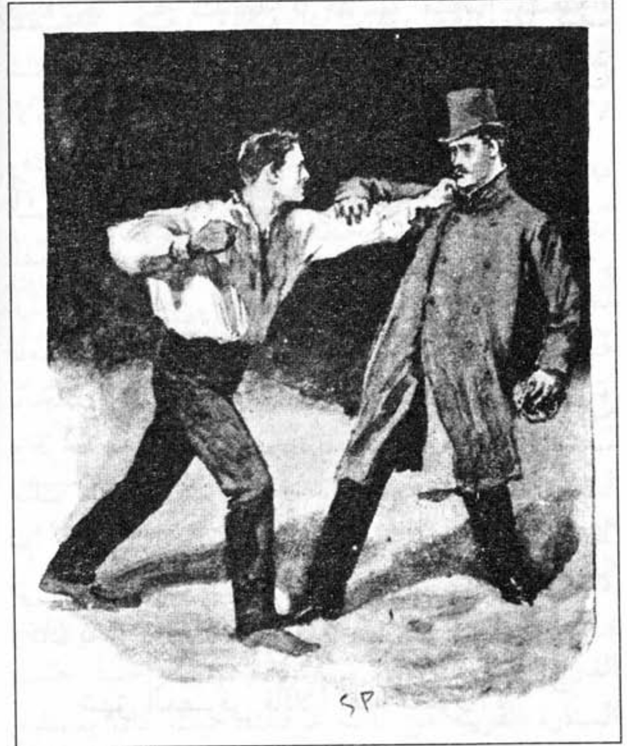
النافذة خلسة وتعطي التاج لشخص يقف في الظلام ثم تغلق النافذة ثانية وتُسرع إلى غرفتها مارّة بالقرب من حيث يقف مختبئاً خلف الستارة.

لم يستطع ابنك أن يقوم بأي تصرّف ما دامت ماري في المكان وإلا عرّض المرأة التي يحب لفضيحة رهيبة، ولكنه أدرك فور مغادرتها كيف ستحطمك هذه النكبة وكيف أن من المهم إصلاح الأمر؛ فأسرع بالنزول كما هو، عاري القدمين، وفتح النافذة ثم قفز خارجاً في الثلج وجرى في الشارع الضيّق، واستطاع رؤية خيال قاتم في ضوء القمر. وقد حاول السير جورج بيرنويل الهرب ولكن آرثر تمكّن من الإمساك به، ودار شجار بينهما فأمسك آرثر بأحد جوانب التاج وأمسك غريمه بالجانب الآخر، وقد ضرب ابنك السير جورج وجرحه فوق عينه، وفجأة انكسر شيء ما، واكتشف ابنك أنه يمسك بالتاج بين يديه، فأسرع عائداً ثم أغلق النافذة وصعد إلى غرفتك، حيث لاحظ في تلك اللحظة أن التاج قد التوى في أثناء العراك، وكان يحاول تصحيح شكله حين ظهرت أنت.

شهق المصرفي قائلاً: أهذا معقول؟!

- وعندها أثرت غضبه بإهانتك له في الوقت

الذي شعر فيه أنه يستحق خالص شكرك، ولم يكن يستطيع أن يشرح حقيقة الأمر دون أن يفضح المرأة التي لم تكن تستحق مثل هذه المراعاة من جانبه، ولكنه -على أية حال- تعامل مع الأمر بفروسية وحافظ على سرّها.



رسم سدني باجيت ١٨٩٢ Sydney Paget 1892

صاح السيد هولدر قائلاً: ولهذا صرخت وفقدت وعيها حين رأت التاج؟ آه، يا إلهي! كم كنت أحمق وأعمى! ولهذا طلب مني أن أسمح له بالخروج لخمس دقائق... لقد كان الابن العزيز يريد أن يبحث عن القطعة المفقودة في مكان العراك. كم كنت قاسياً في الحكم عليه!

تابع هولمز قائلاً: حالما وصلت إلى المنزل قمت بالدوران حوله وأنا أبحث بدقة شديدة عن أية آثار في الثلج قد تساعدني، فقد كنت أعرف أن الثلج لم ينهمر ثانية منذ الليلة السابقة، كما كنت أعرف أن الصقيع سيحفظ الأثر. وعندما سرت على طول ممر الباعة وجدت به آثاراً كثيرة مختلطة بحيث لا يمكن التمييز بينها، وإن وجدت خلفه مباشرة عند الجانب الأبعد لباب المطبخ آثاراً لامرأة وقفت تتحدث مع رجل ذي ساق خشبية كما تدل الآثار المستديرة الموجودة على أحد الجوانب، واستطعت أيضاً أن أعرف أن أحداً قد قاطعهما لأن المرأة أسرعت عائدة إلى الباب كما يظهر من مقدمة القدم الغائرة والأثر الخفيف للكعب، بينما انتظر صاحب الساق الخشبية قليلاً ثم انصرف. وقد ظننت في ذلك الوقت أن هذه الآثار قد تكون للخادمة

(التي كنتَ قد أخبرتني عنها) وصديقها، وقد أثبت التحقيق صحة ذلك. ولم أجد في باقي الحديقة غير آثار عشوائية قررت أنها لرجال الشرطة، غير أنني عندما وصلت إلى الشارع الضيّق وجدت قصة طويلة ومعقَّدة مكتوبة على الثلج الممتد أمامي.

كان هناك خط مزدوج من الآثار لرجل يرتدي حذاء وخط آخر مزدوج -أسعدتني رؤيته- لرجل عاري القدمين، وقد تأكدتُ بسبب ما أخبرتَني به أن الأخير هو ابنك. كان الأول قد سار في الاتجاهين، أما الآخر فقد جرى بسرعة، وبما أن خطواته تركت أثراً في بعض الأماكن فوق أثر الحذاء فقد كان من الواضح أنه قد مرّ بعد الشخص الأول.

سرت متتبعاً الآثار فوجدت أنها تقود إلى نافذة القاعة حيث أزاح صاحب الحذاء كل الثلج تحت النافذة بينما كان ينتظر، ثم مشيت مسافة مئة متر أو أكثر لأصل إلى الناحية الأخرى من الطريق فرأيت المكان الذي استدار صاحب الحذاء عنده، ورأيت كيف اضطرب فيه الثلج كما لو كان صراع قد وقع هناك، وأخيراً رأيت بضع قطرات من الدم على الثلج مما أظهر لي أنني لم أكن مخطئاً. وقد جرى صاحب الحذاء على طول الطريق ودلّ ظهور لطخة

ثانية على أنه هو مَن أُصيب، وعندما وصل الأثر إلى الطريق العام في آخر الشارع وجدت أن الرصيف قد تم تنظيفه، وبهذا انتهى هذا الدليل.

وإذا كنت تذكر فإنني قد قمت فور دخولي إلى المنزل بفحص عتبة نافذة القاعة وإطارها الخشبي مستخدماً عدستي المكبّرة، فاستطعت على الفور رؤية أن شخصاً قد خرج منها، كما استطعت تمييز الخط الخارجي لمشط قدم مبلل يخطو إلى الداخل، وعندها تمكّنت من تكوين نظرية عما حدث؛ فقد انتظر أحد الرجال خارج النافذة حتى أحضر أحد الأشخاص الجواهر، وهو الأمر الذي شاهده ابنك فقام بملاحقة اللص وتعارك معه، وأخذ كلٌّ منهما يشدّ التاج من ناحية، وقد أحدثت قوّتهما مجتمعة أضراراً لم يكن أحدهما قادراً وحده على إحداثها. ثم عاد بالغنيمة ولكنه ترك قطعة في قبضة خصمه.

كان كل شيء واضحاً حتى الآن، ولكن بقي سؤال هو: مَن كان الرجل؟ ومَن أحضر له التاج؟ إن من المبادئ الأساسية الأصيلة عندي أننا حين نحذف المستحيل فما يتبقى يجب أن يكون الحقيقة مهما صَعُب تصديقها. والآن بما أنني أعرف أنه لم يكن أنت من أحضره فلم يبقَ أمامي غير ابنة أخيك

والخادمات، ولكن إن كانت إحدى الخادمات هي المذنبة فلماذا يسمح ابنك بأن يُلام بدلاً منها؟ لا يوجد سبب ممكن لذلك. ولكن بما أنه يحبّ ابنة عمه فهذا تفسير ممتاز لرغبته في حفظ سرّها، ولا سيما أنه سرّ مُشين. وعندما تذكرت أنك رأيتها بالقرب من النافذة وأنها قد فقدت وعيها عندما شاهدت التاج تحوّل شكّي إلى يقين.

ومَن يمكن أن يكون شريكها؟ لا بد أنه رجل تحبه، وإلاّ فمَن غير ذلك يمكن أن يطغى حبه على الحب والامتنان اللذين لا بدّ وأنها تشعر بهما نحوك؟

لقد عرفت أنكما لا تخرجان إلا قليلاً وأن دائرة أصدقائكما محدودة جداً، ولكنها تضم السير جورج بيرنويل الذي كنت أعرف من قبل سمعته السيئة مع النساء، فلا بد إذن أن يكون هو مَن كان يرتدي الحذاء وأنه هو مَن حصل على الجواهر المفقودة. وبالرغم من أن آرثر قد اكتشفه إلا أنه كان لا يزال مطمئناً إلى أنه في أمان، حيث إن آرثر لم يكن ليستطيع أن يقول شيئاً دون أن يعرض أسرته إلى الخطر.

حسناً، بعد ذلك ذهبت إلى منزل السير جورج

وأنا في هيئة متسكّع وتمكّنت من التّعرف على خادمه الخاص الذي أخبرني بأن سيّده قد جُرِح في رأسه ليلة أمس، وأخيراً حرصت على شراء أحد أحذيته القديمة في مقابل ستة شلنات، حيث حملتها معي إلى ستريتهام لأتأكد من أنها تتوافق تماماً مع آثار الأقدام.

قال السيد هولدر: لقد رأيت متشرداً في ملابس رثّة في طريق الإسطبل مساء أمس.

- تماماً، ذلك كان أنا. وعندما اكتشفت أنني قد عثرت على الرجل المطلوب عدت إلى المنزل وغيّرت ملابسي، فقد كان الدور الذي عليّ لعبه في ذلك الوقت دقيقاً جداً، حيث كنت أعرف أننا يجب أن نتجنب اتخاذ أية إجراءات قانونية ضده لنتفادى الفضيحة. وعرفت أن مثل هذا الشرّير الماكر سيحرص على أن تكون أيدينا مقيَّدة في هذه القضية، فذهبت لرؤيته.

وبالطبع فقد أنكر كل شيء في البداية، ولكن حين أعطيته التفصيلات الدقيقة لما حدث حاول تهديدي وأمسك بهراوة كانت بقربه، ولأنني أعرف حقيقته وضعت مسدسي بسرعة على رأسه قبل أن

يتمكن من توجيه الضربة فصار أكثر عقلانية. وعندما أخبرته بأننا سنعطيه ألف جنيه مقابل كل حجر كريم ظهرت بوادر الأسى عليه للمرة الأولى وقال: يا للكارثة! لقد بعت الثلاثة أمس بستمئة جنيه!

وقد تمكّنت سريعاً من الحصول على عنوان



رسم سدني باجيت ١٨٩٢ Sydney Paget 1892

المشتري بعد أن وعدته بعدم مقاضاته، وانطلقت إلى هناك فوراً حيث استطعت بعد مفاوضات كثيرة أن أحصل على الجواهر مقابل ألف جنيه للقطعة، ثم ذهبت إلى ابنك وأخبرته بأن كل شيء على ما يرام، وفي آخر الأمر عدت لأخلد إلى النوم في نحو الساعة الثانية بعد يوم عمل شاق.

قال المصرفي وهو ينهض: إنه يوم أنقذتَ به إنكلترا من فضيحة كبرى يا سيد هولمز. إنني لا أستطيع أن أجد كلمات لأشكرك بها يا سيدي، وسأعرب لك عن امتناني بما فعلت، فمهارتك تجاوزت كل ما سمعت. والآن يجب أن أسرع إلى ابني لأعتذر له عن الأذى الذي سبّبته له، وأما بخصوص المسكينة ماري فأنا أشفق عليها بسبب ما أخبرتَني به، فرغم مهارتك لن تستطيع أن تخبرني بمكانها الآن.

فأجابه هولمز قائلاً: يمكننا أن نقول إنها مع السير جورج أينما كان، ومن المؤكد أيضاً أنها ستلقى العقاب الكافي على ذنوبها أياً كانت.

* * *

-تمت-